Translations | ترجمات

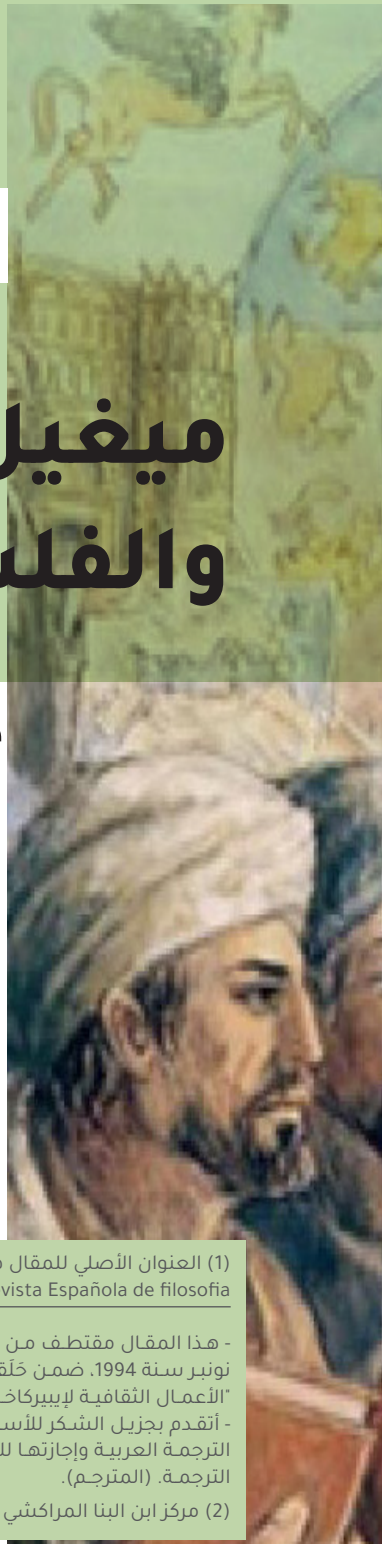

ميغيل أسين بلاثيوس والفلسفة الإسلامية[1]

Miguel Asín Palacios and the Islamic Philosophy

رفاييل رامون غيرّيرو

Rafael Ramón Guerrero

جامعة مدريد

ترجمة

عبد العزيز النقر[2]

Abdelaziz ENNAKR

(1) العنوان الأصلي للمقال هو:
Rafael Ramón Guerrero, **Miguel Asín Palacios y la filosofía musulmana**, en: Revista Española de filosofia Medieval, 2 (1995), pp. 7-17.
- هذا المقال مقتطف من محاضرة عنوانها "أسين بلاثيوس ومساهمته في تاريخ الفلسفة الإسلامية" قدمناها يوم 21 نونبر سنة 1994، ضمن حَلَقة ciclo "الذكرى الخمسون لوفاة ميغيل أسين بلاثيوس" التي نُظمت بسرقسطة من طرف "الأعمال الثقافية لإيبيركاخا" la Obra Cultural de Ibercaja.
- أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ د. رفاييل رامون غيرّيرو على سماحه بترجمة ونشر هذا المقال، وعلى تفضله بقراءة هذه الترجمة العربية وإجازتها للنشر؛ كما أشكر الأستاذ عبد الرزاق النقر، أستاذ اللغة الإسبانية، على تفضله بمراجعة هذه الترجمة. (المترجم).

(2) مركز ابن البنا المراكشي (المغرب). البريد الإلكتروني: abdelaziz.ennakr@gmail.com

ملخص

يقدم المؤلف في هذا المقال، بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة المستعرب الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس، عرضًا لإسهامات هذا الأخير في تاريخ الفلسفة الإسلامية، خصوصًا الفلسفة بالأندلس، من خلال تحليل موجز لكتاباته الأساسية.

النص:

ليس من اليسير الحديث عن حياة ميغيل أسين بلاثيوس[3] متعددة الجوانب، سواء من حيث غنى شخصيته، أو من حيث مجموع أعماله المتنوعة. ورغم أننا نتوفر على دراسة مستفيضة خصصها له خوسي بالديبيا بالور José Valdivia Válor[4]، إلا أن موضوعها الأساسي، كما يشير العنوان الفرعي، هو التصوف الإسلامي كما يراه أسين، وهو ما يقدم لنا فقط جانبًا محدودًا وجزئيًا من عمله الهائل حول المعرفة في الإسلام.

لذلك أريد هنا أن أبرز إسهام أسين في عمل طاله النسيان منذ زمن طويل في إسبانيا، عمل أضحى فيه أستاذًا لا يُضاهى: استعادة الفلسفة التي أنجزها المسلمون، خصوصًا تلك التي أنتجها الأندلسيون. مهمة تأثر فيها، دون ريب، بواحد من اثنين من أهم أسْوَتَيْهِ في الحياة.

يخبرنا خوان ثاراغويتا Juan Zaragüeta في تأبينه لميغيل أسين[5] أنه "كان له فيما هو إنساني قدوتان استلهمهما، هما الكاردينال نيومان Cardinal Newman والكاردينال ميرسيي Cardinal Mercier اللذان زينت صورهما غرفة عمله". ينعكس إعجاب أسين تجاه ميرسيي في العبارات التي كتبها في التكريم الدولي المخصص له (أي لميرسيي): "إن المعيار الذي سعيت إلى استلهامه في دراساتي الإسلامية تختصره عبارات الكاردينال ميرسيي التالية: 'إن إحدى وسائل تفادي مؤاخذة المثقفين المسيحيين على الخضوع الديني التام، هو تعاطي العلم لذاته دون بحث مباشر فيه عن أي منفعة تبريرية"[6].

إقرارا منه بهذا الدَيْن، يكون بلاثيوس قد اعترف أيضًا بإحدى مصادر إلهامه في أحد

(3) نشير هنا إلى ملاحظتين:
أ- بخصوص أسماء الباحثين الإسبان قمنا بكتابة رسمها العربي كما تُنطق في اللغة الإسبانية، أما باقي الباحثين غير الإسبان، كالبلجيكي الكاردينال ميرسيي Mercier وغيره، فقد حاولنا كتابة أسمائهم كما تُنطق في لغاتهم الأصلية.
ب- ترد في جل إحالات أسين بلاثيوس عبارة "إسبانيا الإسلامية أو المسلمة" musulmana Esapña، ورغم ما تكتسيه هذه العبارة من دلالة إيجابية تتجلى في النظر إلى الإرث الثقافي "الأندلسي" باعتباره إرثًا ثقافيا مشتركا، إلا أننا فضلنا أن نستعمل في الترجمة كلمة "الأندلس" لأنها أكثر استعمالًا في الدراسات المنشورة باللغة العربية، كما أنها لا تختلف عن عبارة "إسبانيا المسلمة" من حيث الدلالة على مكان وزمان مخصوصين، أي على رقعة جغرافية محددة وفترة تاريخية معينة. (المترجم).

(4) D. Miguel Asín Palacios. Mística cristiana y mística musulmana Madrid Hiperión 1992.

(5) Anales de la Real Academia de Ciencias Morales y Políticas cuadernos 2 1952 p. 14.

(6) Le Cardinal Mercier (1851-1926), Bruselas, 1927, p. 314.

اهتماماته الأساسية، وهي الفلسفة العربية. وذلك نظرًا لأن ميرسيي، الأستاذ بجامعة لوفن، أراد في الواقع أن يؤسس سنة 1887 معهدًا عاليا للفلسفة قصْد تقديم تكوين في معرفة طوماس الأكويني وكبار السكولائيين في العصر الوسيط ومصادر هؤلاء، والتي كانت من بينها الفلسفة العربية. فضلا عن ذلك، كان ميرسيي واعيا بأنه لمعرفة هذه الفلسفة حق المعرفة، فإنه من الضروري قراءة النصوص العربية بلغتها الأصلية وتحصيل أساس متين في الدراسات الإسلامية.

أدرك أسين بلاثيوس الروح التي حثت مسعى الكاردينال ميرسيي وانصرف بشكل كلي إلى تحقيقه. بدأ دراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية وحضارتها على يدي أستاذيه كوديرا Codera وريبيرا Ribera. وكان من ثمار هذا التكريس أطروحته للدكتوراه حول الغزالي، التي قدمها سنة 1896، وأعماله الأولى حول ابن عربي المرسي وابن باجة السرقسطي. وعن هذا الأخير كانت دراسته الأولى في الفلسفة الإسلامية بالمعنى الدقيق، وكان عنوانها "**الفيلسوف ابن باجة السرقسطي**"[7]. أما بخصوص دراسات أسين حول ابن باجة فقد تكلف بها الأستاذ لومبا[8].

بتشجيع من مَرْثِلينو مِنينديث بِلايو Marcelino Menéndez Pelayo ، الذي ناقش أطروحته (أطروحة أسين) باعتباره عضوا ضمن لجنة المناقشة، قرر أسين نشر ثمار أبحاثه عن الغزالي (1057-1111) في مؤلف ضخم بعنوان **الغزالي: العقيدة، الأخلاق، الزهد**[9]، وهو العمل الأول ضمن سلسلة من الأعمال التي سيخصصها لاحقًا لهذا المفكر الفارسي. رغم أنه لم يشتغل في هذا العمل بالفلسفة بالمعنى الدقيق، نظرًا لأنه تطرق فيه لأفكار الغزالي الكلامية والصوفية، غير أننا نرى هنا أن أسين بلاثيوس كان على ألفة جيدة بالفلسفة الإسلامية السابقة على الغزالي؛ وبتطور علم الكلام في الإسلام؛ وبحضور الفلسفة اليونانية في العالم العربي؛ وباستفادة المتكلمين الأشاعرة من النظرية الذرية اليونانية لرفض التصور الأرسطي لأزلية العالم؛ وأخيرًا، على ألفة جيدة بتطور الأفكار الصوفية في الإسلام.

تكوّن الغزالي في دراسة الفيلسوفين الشرقيين الفارابي وابن سينا. عرض أفكارهما في مؤلفه **مقاصد الفلاسفة** بطريقة أمينة وممتازة، وسيتخذ بعد ترجمته إلى اللاتينية موجزًا للفلسفة العربية من طرف السكولائيين اللاتين. سينقض فيما بعد هذه الفلسفة في كتابه **تهافت الفلاسفة** حيث سيميل إلى النزعة الزهدية والنزعة الصوفية. هكذا سيبرز كاتب مصنف **إحياء علوم الدين**. سيوضح أسين بلاثيوس في دراسته كيف

(7) Revista de Aragón, 1 (19000), pp. 193-197, 234-238, 278-281, 300-302 ; y 2 (1901), pp. 241-246, 301-303, 348-350.

(8) العمل الذي يقصده المؤلف هنا هو المقال الذي سيُنشر فيما بعد بعنوان:
Joaquín Lomba Fuentes, **Asín Palacios y el filósofo zaragozano Avempace**, Ẹndoxa. Series Filosóficas; No 6, 1995. pp. 53-78.. (المترجم)

(9) Zaragoza Comas Hnos 1901.

استفاد الغزالي من التأمل النظري لعلم الكلام ومن التأمل الميتافيزيقي والفلسفي لأسلافه في الإسلام، وكيف كان هذا التأمل النظري حاضرا في كل أعماله، خصوصًا في إحياء علوم الدين الذي ترجم أسين فقراته الأساسية بأسلوب واضح، بديع وفريد. عرض أسين تصورات الغزالي حول الفكرة القائلة بأن الله هو أساس الأمر الأخلاقي، وعرض مجهوداته لحل التناقض بين حرية الإرادة والعلم الإلهي المسبق، كما عرض آراء الغزالي الأكثر أهمية، التي سيتوسع فيها لاحقًا ويطورها في عمله الضخم المكوَّن من أربع أجزاء: **روحانية الغزالي ودلالتها المسيحية**[10].

نشر في نفس السنة، أي سنة 1901، مقالًا صغيرًا خصصه لابن طفيل من وادي آش[11] عَنْونه بـ"**الفيلسوف العصامي**"[12]، وقد بسط فيه الأفكار الأساسية للقصة [الفلسفية] التي كتبها هذا الفيلسوف الوادي آشي، التي ترجمها الفقيد المستعرب فرانثيسكو بونس إي بويغيس Farncisco Pons Y Boigues قبل ذلك بسنة. إن الفيلسوف العصامي، حسب قول مينينديث بيلايو في تقديمه لهذه الترجمة، هي العمل الفلسفي الأكثر أصالة وعمقا في الأدب العربي - الأندلسي. وقد كانت معروفة جدا في أوروبا انطلاقًا من طبعتها العربية وترجمتها اللاتينية التي أنجزت في أوكسفورد سنة 1671، وسرعان ما انتشرت ترجماتها في اللغات الأوربية الأساسية، وهو ما يقدم فكرة عن الفضول الذي أثارته بين المثقفين.

منذ ذلك الحين، سينشر أسين كل سنة تقريبًا أعمالًا أو مقالات تكشف عن إلمامه بالفلسفة عامة والفلسفة العربية خاصة، مع وعيه بالإهمال الذي طال هذا الجانب من الدراسات الإسلامية طيلة قرون. كما يؤكد أنه لا يستطيع أي شخص، رصين ويحترم نفسه، أن يتجرأ على إنكار ما يدين به القرن 13م للفلاسفة العرب، مع تأكيده أن الأمر ما دام يتعلق بمعرفة أفكار كتاب استعملوا لغة مختلفة عن لغتنا، فإنه من الضروري ترجمة النصوص الفلسفية العربية الأصلية. ولإنجاز هذا المسعى، فمن اللازم تحصيل تكوين متين في علم النحو ومعجم [اللغة العربية]، هذا إضافة إلى معرفة المصطلحات التقنية الخاصة التي استعملها الفلاسفة العرب، وهي مصطلحات غير مُدْرجة في المعاجم المستعملة عادة. بعد تعرفه على المعضلات التي كابدها أيضًا العرب أنفسهم أثناء ترجمة النصوص اليونانية، وباقتناعه بالإيجابيات التي يمكن أن يوفرها معجم يضم المصطلحات التقنية الأساسية لهذا المبحث، سيؤلف [عمله الموسوم بـ] "**صيغة أولية لمعجم تقني للفلسفة وعلم الكلام الإسلاميين**"[13] الذي قدم فيه الخطوط العامة لمشروعه هذا.

(10) Madrid, Ed. Imprenta Maestre 1934-1941.

(11) بلدة تقع شمال شرقي غرناطة، وتسمى بالإسبانية Guadix. (المترجم).

(12) Revista de Aragón 2 (1901) pp. 25-27 57-60 89-91.

(13) Revista de Aragón 5 (1903) pp. 179-189 264-275 343-359.

بيَّن في هذه "الصيغة الأولية" ما شكّل في نظره إطار ممارسة الفلسفة بين العرب: نفس فروع المعرفة التي شكلت موسوعة المشائين والأفلاطونيين المحدثين، وهي: المنطق والميتافيزيقا والرياضيات والفيزياء والأخلاق والاقتصاد (التدبير) والسياسة؛ وقد أضاف إليها العرب الطب والعلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الفلك والميكانيكا وعلوما أخرى. لكن، يقول بلاثيوس، يجب أن نستثني كل تلك العلوم التي تشكلت باستقلال عن الفلسفة منذ عصر النهضة الأوروبية. فبالنسبة له، لا يجب أن يتضمن معجم تقني للمصطلحات الفلسفية إلا الكلمات التي تُعَبّر عن أفكار هي حاليًا موضوع للفلسفة: المنطق والأنطولوجيا والسيكولوجيا والكوسمولوجيا ونظرية العدل الإلهي والأخلاق. إضافة إلى ذلك، يجب أن يشتمل المعجم على المصطلحات الخاصة بالعلوم التقليدية (النقلية) أو علوم الوحي.

سينشر فيما بعد واحدًا من أشهر أعماله، وقد نُشر بمناسبة تكريم أستاذه فرانسيسكو كوديرا Francisco Codera الذي كان أستاذ كرسي للغة العربية بجامعة مدريد، وسيشغل أسين هذا الكرسي بعد التقاعد الاختياري لكوديرا. كان عنوان هذا العمل هو "**الرشدية اللاهوتية للقديس توماس الأكويني**"[14]، وهنا، سيبرهن أسين مجددًا على معارفه الفلسفية العميقة. بَيَّن فيه كيف كانت الأرسطية منذ البداية محاطة بتفسيرات المفكرين (النُظّار) العرب التي استلهموها بصفة عامة من الأفلاطونية المحدثة، ودرس فيه كذلك مسألة العقل والإيمان لدى كل من سيجير دي برابانتي والقديس توماس الأكويني وابن رشد. حيث سيؤكد بعد ذلك أن نظرية ابن رشد المتعلقة بالإيمان والعقل مناقضة تمامًا لتلك التي دافع عنها الرشديون؛ فبالنسبة له، وبعيدًا عن أن يكون ابن رشد أستاذًا وراعيًا للعقلانية الرشدية، فقد كان هو خصمها الأكثر جذرية. فنظريته تتوافق في كل شيء مع نظرية العالِم الملائكي[15]، وليس هذا الأمر مجرد صدفة أو بسبب الاستخدام المشترك للمصادر اليونانية، بل إنه يرجع بالأحرى إلى قراءة القديس توماس لابن ميمون، أو على الأرجح، يرجع إلى قراءته لكتابات الدومينيكاني الإسباني رايموندو مارتينRaimundo Martín أو رامون مارتيRamón Martí ، الخبير باللغة العبرية والعربية، خصوصًا لكتابه *Pugio fidei advesus mauros e judaeos* الذي أبان فيه عن معرفته (أي مارتين) بنصوص دينية وفلسفية إسلامية حيث يستشهد فيه بالقرآن والفارابي وابن سينا والغزالي، وخصوصًا، بابن رشد وشروحاته على كتاب الطوبيقا (الجدل) وكتاب الميتافيزيقا، والجوامع وكتاب تهافت التهافت والضميمة (*Epistola ad amicum*).

نَقَل توماس الأكويني، حسب أسين، عن كتاب الـ *Pugio fidei*، خصوصًا في كتابه *Summa contra gentes*. يؤكد أسين: "ليس

(14) Homenaje a D. Francisco Codera en su jubilación del profesorado Zaragoza Mariano Escar 1904.

(15) لَقبٌ يُطلق على القديس توماس الأكويني. (المترجم).

في ذلك أدنى شك بالنسبة"، ويتابع قائلًا: "كان رايموندو مارتين، الأكبر سنًا، قد قضى سنين طويلة في دراسة المصادر العربية والعمل عليها عندما بدا أن القديس توماس قد بدأ في تأليف كتابه. من جهة أخرى، فإن كثيرًا من الأبواب في كتاب *Summa* متطابقة حرفيًا مع أبواب في كتاب *Pugio*، كما أن الأفكار المشتركة بين الكتابين هي أحيانًا ترجمات حرفية لنصوص عربية للغزالي وابن سينا وابن رشد ... وليس من الوقاحة التأكيد أن القديس توماس أخذها عن رايموندو مارتين الخبير بمعرفة الفلسفة الإسلامية. وسيكون من الغريب افتراض العكس".

إذن، فقد بدا الأمر غريبًا، خصوصًا بالنسبة لكثير من التوماويين الذين لم يستطيعوا بسهولة تقبل أن يكون القديس توماس قد انتحل نصوصًا لأخيه في الدين رايموندو مارتين. هكذا سينشر الأستاذ خيتينوGetino بعد ذلك بسنتين، أي في سنة 1906، في دار النشر Vergara مجلدًا من 109 صفحة بنفس عنوان مقال أسين[16]، وسعى فيه إلى دحض بحث هذا المستعرب (أسين) برمته. رغم اعترافه بعدم إلمامه باللغة العربية وبعدم توفره على كتاب *Pugo fidei* لمقارنته بكتاب *Summa* للقديس توماس، فإنه لم يتردد في أن يرفض رفضًا باتًا أطروحة أسين ولا أن يؤكد أن الأكويني لا يمكن أن يكون قد استعمل نص مارتين. لا زالت هناك نقاشات دائرة حول هذه المسألة بين المتخصصين في القديس توماس، أي إذا كان [هذا الأخير] قد قرأ كتاب *Pugio fidei* أم لا، انتحله أم لا في كتابه *Summa contra gentes*، أو إذا كان رامون مارتي هو من استخدم [كتاب] طوماس الأكويني[17].

كانت مساهمته الجديدة في التعريف بالغزالي وبابن رشد هي مقاله المعنون بـ"**معنى كلمة 'تهافت' في أعمال الغزالي وابن رشد**"[18]، حيث سيعمل فيه، مقابل الترجمات المتباينة التي اقترحها بعض الدارسين، على تحديد معنى هذه الكلمة، أي التهافت، لدى هذين الكاتبين. باستناده إلى دراسات فيلولوجية وتهميشه للجانب النحوي بشكل صريح، سيخلص أسين بخصوص استخدام الغزالي لهذا المصطلح في نصوص عديدة وفقرات مختلفة، إلى أن تهافت الفلاسفة تعني لديه "التسرع النزق للمشائيين".

إن الموقف الذي تبناه ابن رشد، عندما أقدم في كتابه تهافت التهافت على تفنيد ونقد الغزالي، سيؤكد تماما فرضية الترجمة

(16) العمل الذي يقصده الأستاذ غرّيرو هو:
Luis Alonso Getino, **El averroismo teológico de Santo Tómas de Aquino**. Vergara. 1906. 109 p. (المترجم).

(17) بخصوص أحدث دراسة حول هذه المسألة، يُنظر:
E. Colomer, **La controversa islamo-judeo-cristiana en la obra apologética de Ramón Martí**, en Diálogo filosófico-reliojoso entre cristianismo, judaísmo e islamismo durante la Edad Media en la Península Ibérica. Actes du Colloque international de San Lorenzo de El Escorial, 23-26 juin 1991, organisé par la Société Internatiobale pou l'Etude de la Philsopohie Médiévale, édités par Horacio Santiago-Otero, Turnhout (Bélgica), Editions Brepols, 1994, pp. 229-257, especialmente en pp. 240-242.

(18) Revue Africaine, 1906, pp. 185-203.

المقترحة، وذلك نظرا لأن أسين قد وجد نصوصا كافية لهذا القرطبي (ابن رشد) يردد فيها الغاية التي دفعته إلى تأليف هذا العمل. فـ"التهافت" يعني عند ابن رشد "حلا غير ناضج ومتسرع للمسائل الفلسفية-الكلامية". اعترف أسين بلاثيوس في خاتمة المقال بدَيْنه، في شرح هذه الكلمة، لِلدومينيكاني Dominico رايموندو مارتين؛ إذ عندما استشهد [هذا الأخير] في كتابه *Pugio* بعمل الغزالي عَنْوَنَهُ بـ *Ruina seu Praecipitium philosophorum*. إن عمل أسين هذا له نفس جذور دراسته السابقة.

قدم سنة 1908 خطابًا في المؤتمر الدولي للمستشرقين المنظم بكوبنهاغن تناول فيه بالدراسة فيلسوفًا أندلسيًا آخر، هو ابن طملوس الشقري، حيث عرَّف بعمله في المنطق الموجود ضمن المخطوط رقم 649 بمكتبة الاسكوريال. قدَّم الكاتب الأندلسي في هذا العمل تلخيصًا للمنطق من خلال كتاب[19] رُتب بشكل منهجي معين، وقد أبان فيه، كما يقول أسين، عن استيعاب ممتاز لهذه المادة (صناعة المنطق) وعن نية مقصودة في ألا يقتصر دوره على الشرح الصرف. أبرز أسين أن الأمر يتعلق بنص بالغ الأهمية لتاريخ الفلسفة الإسلامية بالأندلس، وذلك نظرًا [لما تضمنه] من إشارات إلى وضعية الدراسات في تلك الفترة ونظرًا لإشارته إلى التغيرات التي شهدها المعيار اللاهوتي (الكلامي) الضيق لفقهاء الأندلس الرافضين لكل تجديد علمي، والمستعدين لقبوله كرأي صحيح بمجرد اعتيادهم النظر إليه كشيء تقليدي. بيّن أسين أيضًا كيف أن ابن طملوس، تلميذ ابن رشد، تفادى بشدة الاستشهاد بأستاذه بسبب وصمة الكفر التي اشتدت عليه سابقا وطأتها، وكيف أنه استعان بنصوص الفارابي بدلًا من شروح ابن باجّة أو شروح ابن رشد نفسه؛ وكيف يُقر في المقابل بأنه تلميذ للغزالي الذي ينسب لكتبه المنطقية فضل تعلمه هذه المادة (صناعة المنطق).

سينشر أسين بلاثيوس في وقت لاحق نص هذا العمل، مُرْفَقًا بترجمة إسبانية، معنونًا إياه بـ"**مدخل إلى صناعة المنطق لابن طملوس الشقري**"[20]. عرض في المقدمة سيرة مقتضبة للمؤلِف مع وصف للمخطوط وتقييم موجز للمنطق عند ابن طملوس. وبهذه الطريقة، فقد أسهم أسين بلاثيوس مرة أخرى في التعريف بأهمية الفلسفة الأندلسية من خلال نصوصها نفسها.

انضم د. ميغيل أسين بلاثيوس في مارس من سنة 1914 إلى الأكاديمية الملكية للعلوم الأخلاقية عضوًا أكاديميًا ليشغل المكان الشاغر الذي تركه مينينديث بيلايو. وكان خطاب انضمامه هو "**ابن مسرة**

(19) عنوان كتابه هو "مختصر في المنطق"، وقد حققه مؤخرًا الأستاذ فؤاد بن أحمد:
- **Ibn Ṭumlūs (Alhagiag Bin Thalmus d. 620/1223), Compendium on Logic (al-Muḫtaṣar fī al-manṭiq)**, Edited, with Introductions, Notes, and Indexes by Fouad Ben Ahmed, Brill, Leiden/ Boston, 2019. 554 p. (المترجم).

(20) Madrid, Imprenta Ibérica, 1916.

ومدرسته: دراسة في مصادر الفلسفة الإسلامية بالأندلس"[21]. نكتشف في العبارات الافتتاحية التواضع الذي تحلى به أسين بلاثيوس في معالجة كل أعماله، حيث يقول: "إن الشيء الوحيد الذي أعمل لأجله بشكل متواضع هو البحث، مع شيء من الصبر، في سجلات ماضينا عن تاريخ الأنظمة الفلسفية والكلامية للمفكرين المسلمين بالأندلس". يا له من صبر تطلب توثيقًا كبيرًا وعملًا هائلًا !وهو ما يقدمه لنا هذا الخطاب؛ إذ نعثر فيه حقًا على بحث عميق حول أصول الفلسفة الإسلامية في الأندلس. وهو أمر لم يجرؤ عليه أحد من قبل.

إن هدفه، كما أقر في البداية، هو تقديم "دراسة متواضعة لأصول الفكر الفلسفي-الكلامي في الأندلس، التي يبرز داخل تنوع توجهاتها الأولية نظام هرطقي حقيقي داخل الإسلام، هو نظام المسريين[22]، بخصائص أفلاطونية محدثة، صوفية وحلولية (وحدة الوجود)، ذات جذور أكثر عمقا داخل الروح الأندلسية. سيُقلق [هذا النظام]، من خلال مفكرَيْنِ لاحقَيْن هما اليهودي ابن جيبرول والمسلم ابن عربي، السكولائيةَ المسيحيةَ مثيرًا بين ممثليها الرئيسين بعض المجادلات، ولا تزال أصداءه الأخيرة تُسمع في أيامنا هذه داخل التأملات العرفانية لصوفية الإسلام المهرطقة من إفريقيا إلى الهند".

وصلت أصول الفلسفة الإسلامية الأندلسية منذ القرن العاشر، أي القرن الذي بدأت فيه، إلى مسيحيي العصر الوسيط من جهة، وإلى مسلمي اليوم أنفسهم من جهة أخرى. ومن هنا أهمية العمل الذي انكب عليه أسين في هذا الخطاب. لكن، لم يبدأ هذا العمل في القرن العاشر وفي قرطبة حيث كان ابن مسرة، بل بدأ قبل ذلك بكثير، بدأ مع النبي محمد وتعاليمه ومع القرون الثلاثة الأولى للحياة الإسلامية ومع تطور الفكر الإسلامي. لقد فحص أسين بلاثيوس هذا الفكر ابتداء من أشكاله وتجلياته الأولى، وحلل العديد من الفِرق التي امتزجت آراؤها ببعض عناصر الفلسفة اليونانية حيث ساهمت في نشر هذه الفلسفة داخل الإسلام. كما حلل أيضًا، وباقتضاب، التيار الفلسفي وظهور التصوف أو الحركة الصوفية. وقد سمح له كل هذا بأن يضع نشوء الفكر الأندلسي في سياقه: "إن تاريخ الفكر الفلسفي - الكلامي في الأندلس نسخة وفية للثقافة الإسلامية في المشرق، وليس له أي صلة مؤكدة ومبرهن عليها بتقاليد البلد الأصلية". هنا عُبِّرَ عن الأطروحة المركزية لأسين: إن الفكر الأندلسي لا يدين بشيء للثقافة الرومانية - القوطية السابقة، بل إنه ثمرة لما سبق أن أنجِز في المشرق

(21) خطاب ألقاه ميغيل أسين بلاثيوس بمناسبة استقباله بالأكاديمية الملكية لعلوم الأخلاق والسياسة La Real Academia de Ciencias Morales y Políticas ، وعقب عليه فضيلة السيد إدواردو سانث إي إيسكارتين Don Eduardo Sanz y Escartín في 29 مارس سنة 1914، (Madrid, Imprenta Ibérica , 1914).

(22) نسبة إلى ابن مسرة وتلاميذه (المترجم).

الإسلامي. رغم أنه أُثبت لاحقًا وجود بعض عناصر هذه الثقافة (الرومانية - القوطية) في الأندلس، ورغم أنه لا زالت تنقص دراسات حول إسهام المستعربين Mozárabes في الحضارة الإسلامية بالأندلس، إلا أن أطروحة أسين ما تزال تحتفظ بصحتها سليمة في خطوطها الأكثر عمومية.

بعد أن بيّن أسين كيف دخلت الفلسفة إلى الأندلس، إذ "لم [تدخل] بشكل صريح، بل مصاحبة للعلوم التطبيقية أو تحت ستار هرطقات المعتزلة والباطنية"، سيبدأ دراسته للشخصية التي خصص لها النصيب الأوفر من خطابه، وهو ابن مسرة القرطبي المولود سنة 883 والمتوفى في 20 من أكتوبر سنة 931. وقد أوجز إميليو غارثيا غوميث Emilio García Gómez بشكل رائع الرأي الذي عرضه أسين حول ابن مسرة [قائلًا]: "سيدرس هناك ببراعة، بخصوص الأساس الفكري الغامض للقرون الأولى للإسلام في الأندلس، التجديد الفريد لابن مسرة: دمجه للنظام الأفلوطيني لأنباذوقلس-المزيَّف ونظريته الأكثر تميزًا (تراتبية الجواهر الخمس التي تتصدرها المادة العقلية الأولية [الهيولى]) مع عناصر معتزلية، شيعية وصوفية"[23].

يرجع النقص الشديد في المعطيات، الذي كان على أسين مواجهته قصد إعادة بناء النظام المسري، إلى اجتماع بعض الظروف التي لا تحدث عادة: التستر الغامض الذي أخفى وراءه ابن مسرة مذهبه؛ والطابع الباطني لكتاباته؛ والعدد القليل لتلاميذه؛ وتهمة الهرطقة والكفر التي وُصِمُوا بها؛ وأخيرًا الضياع الكلي لكتبه. استطاع أسين بلاثيوس فقط من خلال طرق غير مباشرة أن يتتبع ويستقرئ شيئًا مما كانت عليه أفكار هذا المفكر القرطبي الجريء. سينعت صامويل ستيرن Samuel Stern، في الخطاب الذي قدمه في المؤتمر التاسع للدراسات العربية الإسلامية المنظم بكيومبرا[24] ولشبونة سنة 1968، أطروحة أسين بأنها [مجرد] "وهم". غير أنه، كما سيُبيّن كل من كروث إيرنانديث Cruz Hernández وإيميليو طورنيرو Emilio Tornero في وقت لاحق، فإن أطروحة كَوْن ابن مسرة تابعًا لإنباذوقلس المزيف بعيدة عن أن تكون وهمًا، ولا يمكن دحضها طالما لم تظهر شواهد مضادة.

كانت خلاصة أسين هي التالية: "سيتم منذ القرن الثامن الميلادي، أثناء الخلافة الرائعة ببغداد، إحياء أنظمة متعددة من الأفلاطونية المحدثة المطبوعة بتصوف مسيحي قوي، وستنتشر بسرعة بفضل أدب غزير من الأسماء المستعارة والمنتحل. من بين هذه الأنظمة، هناك نظام إنباذوقلس المزيَّف ... الذي أدخله إلى الأندلس خلال القرن 11م مسلم ذو أصول أندلسية هو ابن مسرة القرطبي الذي كرس حياته لنشره بين

(23) «Esquema de una biografía», Al-Andalus, 9 (1944), pp. 277-278.

(24) أو "قُلْمَريّة"، وهي مدينة توجد بالبرتغال. (المترجم).

إخوانه في الدين، مازجًا بينه وبين معتقدات وممارسات صوفية مسيحية الأصل. فالمدرسة الصوفية والأفلاطونية المحدثة التي أسسها دامت في الأندلس حتى القرن الحادي عشر الميلادي، واندمجت[25] فيما بعد في التصوف الأندلسي للمدرسة الألميرية، حيث ستغني التركيب الحلولي (وحدة الوجود) والعرفاني لابن عربي المرسي ومدرسته، الذي انتشرت أعماله حتى أيامنا هذه وصولًا إلى أقصى حدود الشرق الإسلامي وغربه، حاملة معها الروح المسرية (ابن مسرة) إلى التعاليم الصوفية في بلاد فارس والهند". وختم [أسين خطابه] مقرًا بتفوق الثقافة الأندلسية التي سبق أن أبان عنها ابن حزم القرطبي في القرن 11 الميلادي.

خصص أسين بلاثيوس لهذا القرطبي عمله الفلسفي التالي، وهو ترجمة نص لابن حزم. يتعلق الأمر بعمل يحمل عنوان "**الأخلاق والسير في مداواة النفوس: مصنف في الأخلاق العملية لابن حزم القرطبي**"[26]، وهو نوع من المذكرات (اليوميات) واعترافات من سيرته الذاتية[27]. قبل ذلك، نشر أسين في سنة 1907 أول دراسة مخصصة لهذا القرطبي الذي كتب في علوم شتى، وكان عنوانها "**اللامبالاة الدينية في الأندلس حسب ابن حزم مؤرخ المِلل والنحل**"[28]، وقد عرض فيها الخطوط الأولى لما سيشكل فيما بعد خطاب انضمامه إلى الأكاديمية الملكية للتاريخ، وكان عنوان خطابه "**ابن حزم القرطبي: أول مؤرخ للأفكار الدينية**"[29].

سَيَبْسُط أسين الحديث فيما بعد عن هذه المفاهيم في عمله الكبير "**ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأفكار**" الذي نشر بين سنة 1927 و1932 في خمسة أجزاء. الجزء الأول منها عبارة عن عرض، منقطع النظير في زمننا هذا، لسيرة وعمل وفكر هذا القرطبي، في حين تشكل باقي الأجزاء الأربعة الترجمة الإسبانية لكتاب "الفِصل" لابن حزم، أي تاريخه للأفكار.

(25) وضع المؤلف مباشرة بعد هذه الكلمة هذا الرمز [sic]، وهو كلمة لاتينية تشير إلى أن ما ورد قبلها ورد حرفيًا كما هو في النص المُقتَبَس منه. أما الكلمة المقصودة فهي ingertada، ولم نعثر على هذه الكلمة في المعاجم التي عدنا إليها. من المرجح أن الكلمة المقصودة من طرف أسين هي injertada لكن تصحيفًا وقع لحرف j فأصبح و. ويشير فعل injertar إلى عملية تطعيم النبات. وقد استعمل أسين هنا نفس هذا المعنى بنوع من المجاز.

(26) ترجم أسين هذه الرسالة إلى الإسبانية (M. Asín Palacios, Madrid, Imprenta Ibérica, 1916).

(27) ترجم أسين هذه الرسالة بعنوان "Los caracteres y la conducta. Tratado de moral práctica por Abenházam de Córdoba"، والعنوان الفرعي (مصنف في الأخلاق العملية) من وضع أسين وغير موجود في النص الأصلي. كما نشير إلى أنه تم إعادة تحقيق هذه الرسالة ضمن:
رسائل ابن حزم الأندلسي، ج1، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط. 2، 2007. ص 325-415. (المترجم).

(28) Cultura Española, 5 (1907), pp. 297-310.

(29) خطاب ألقي بالأكاديمية الملكية للتاريخ La Real Academia de la Historia أثناء حفل استقبال عام للسيد ميغيل أسين بلاثيوس يوم 18 ماي سنة 1924، مع خطاب تعقيبي للسيد خوليان ريبيرا تارّاغو Don Julián Ribera Tarragó. (Madrid, Impenta Maestre, 1924).

يخبرنا أسين بلاثيوس أن ابن حزم كان واحدًا من أكثر الكتاب إنتاجًا وأكثر المفكرين أصالة في الأندلس، فهو مؤرخ وشاعر وأديب وفقيه ومتكلم ومفسر وعالم أخلاق ومنطقي وكاتب في السياسة وعالم نفس ومجادل (مناظر) وميتافيزيقي. فقد كرس نشاطه "المذهل" لكل فروع الموسوعة اليونانية والإسلامية، باستثناء الرياضيات التي أقر بعدم إلمامه بها. سَيُطَبّق على كل هذه الفروع نفس المعيار المنهجي: نفي كل سلطة بشرية ليحل محلها المعنى الحرفي (الظاهري) لنصوص الوحي بخصوص الأمور الدينية، والعقل البديهي المحض، الخالي من الأحكام المدرسية المسبقة، في المسائل الدنيوية. إن اسم مفكر عبقري كهذا - يقول أسين - يغيب بشكل تام عن التواريخ العامة للفلسفة، ولا تكاد تخصص له أعمال المتخصصين، حتى وقت قريب جدًا، إلا بعض السطور المقتضبة التي تُلَمّح بغموض شديد إلى أهمية نسقه لعلم الكلام والشريعة في الإسلام. وهذا الغياب هو ما ملأته إلى حد كبير أعمال أسين.

لا يزال الجزء الأول، حتى يومنا هذا، من أتم الدراسات المتخصصة (monografías) التي كُتبت على الإطلاق. وكما قال بالديبيا Valdivia[30]، فقد برزت للعيان، إلى جانب الشخصية المحورية لهذا القرطبي المتميز، حيوية الحياة الواقعية في الأندلس خلال القرن الحادي عشر الميلادي. فإضافة إلى المشاكل النفسية العميقة لهذه الشخصية (ابن حزم) في جانبها العاطفي كما في جانبها الديني، فقد ظهر [بالأندلس] شغف سياسي خلال فترة كانت تنهار فيها الإمبراطورية وبرز بشكل أكثر جلاء أمر بالغ الأهمية هو المشكلة الدستورية في الإسلام بالأندلس. كان تحليل الإنتاج البيبليوغرافي لابن حزم تامًا ومتزنًا؛ حيث يرى القارئ كيف ألف هذا الكاتب القرطبي كتاباته الفلسفية والفقهية والكلامية والتاريخية أو الأدبية الصرفة التي تَميَّز من بينها نصان من الطراز الأول، كل واحد منهما كافٍ لتخليد [اسم] أي كان: كتاب طوق الحمامة الذي ترجمه إيميليو غارثيا غوميز Emilio García Gómez وكتب مقدمته خوصي أورتيغا إي غاسيتy José Ortega Gasset ؛ وكتاب الفِصل في الأهواء والمِلل والنِحل (التاريخ النقدي للأفكار الدينية) الذي ترجمه أسين بأسلوب نثري خلاب.

سيكون ابن حزم أيضا موضوعًا لعَمَلين آخرين لأسين بلاثيوس. نشر أحدهما سنة 1934 بعنوان "**مخطوط مجهول لابن حزم القرطبي**"،[31] وهو مهم؛ نظرًا لأنه نَبَّه فيه إلى مجموع رسائل ابن حزم التي عُثر عليها في مسجد الفاتح بإسطنبول، وهي مجهولة في معظمها وغائبة حتى عن الفهارس الغربية والشرقية. تسترعي الانتباهَ من

(30) José Valdivia, op. cit., p. 33.

(31) Al-Andalus, 2 (1934), pp. 1-56.

بينها رسالة مراتب العلوم (وهي رسالة في تصنيف العلوم) التي يتصدى فيها كاتبها للعلوم من وجهة نظر كلامية لا من وجهة نظر فلسفية، رغم ذلك، لا يمكننا القول بأن الرسالة تعوزها القيمة الفلسفية أو المنطقية؛ إذ رغم أن استدلالاتها كانت موجهة دائما نحو وجهة نظر دينية، إلا أنها تزخر بمعطيات مهمة حول كل فروع الموسوعة اليونانية والإسلامية.

أما المقال الآخر فعنوانه "**أصل اللغة وبعض المشاكل المرتبطة بها عند الغزالي وابن سينا وابن حزم**"[32]، حيث درس فيه أسين إشكال أصل اللغة عند هؤلاء الكتاب الثلاثة. اهتم ابن حزم بهذا الإشكال في مؤلفه "**كتاب الإحكام في أصول الأحكام**" الذي نُشر في ثمانية أجزاء بالقاهرة. سيترجم منه أسين بلاثيوس الباب الرابع من الجزء الأول الذي يدور "**حول الكيفية التي نشأت بها اللغة: أعَنْ طريق تعليم (تلقين) إلهي أو من خلال اصطلاح إنساني؟**"، حيث يميل ابن حزم إلى الخيار الأول مؤكدا بوضوح أن أصل اللغة كان بواسطة تعليمٍ من الله، كما يُبيّن ذلك الوحي والعقل.

أخيرًا، انتشل أسين بلاثيوس مرة أخرى كاتبًا أندلسيا آخر من النسيان، وكان هو أول من أشار إلى أهميته وخطورته باعتباره فيلسوفًا، وهو ابن السيد البطليوسي (ت. 1127) الذي مَرَّ في كتب تاريخ الثقافة العربية كفيلولوجي ونحوي، نظرًا لأن مؤلفيها ركزوا على إظهار هذه المواهب أكثر من مواهبه كمفكر وفيلسوف، هذه المواهب التي كانت محتقرة في أعين كتاب التراجم والسير المتشددين (الأرثوذكسيين) في الأندلس. تمثل كتابات البطليوسي الفلسفية لحظة تكوّن للأنظمةِ التي صاغها ثلاثة مفكرين كبار في القرن 12م: ابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

تحدث أسين بلاثيوس أول مرة عن هذا الكاتب في مقال بعنوان "**أطروحة ضرورة الوحي في الإسلام والسكولائية**"؛ إذ أشار فيه إلى وجود مخطوط بمكتبة الإسكوريال يضم كتاب المسائل لابن السيد البطليوسي. وهي مسائل ذات طبيعة فيلولوجية، لكن بعضها يتعلق بالفلسفة. من بين هذه المسائل، لفتت انتباهَ أسين بلاثيوس مسألة يحيل فيها البطليوسي إلى نقاش جرى مع صديق له حول تَدَيّن أو عدم إيمان الشاعر الطليطلي أبو الوليد الوقاسي بسبب بيتين شعريين له يتطرقان للفلسفة وعلم الكلام بعبارات مبهمة تحتمل تأويلات مختلفة. بخصوص هذين البيتين، يطرح ابن السيد إشكالية التوفيق بين الإيمان والعقل ويحلها على طريقته. يحكي أسين بلاثيوس في هذا المقال عن تحولات أطروحة ضرورة الوحي منذ أصولها في الفلسفة اليونانية وظهورها في المذهب المسيحي، [وصولًا] إلى الفارابي وابن سينا والغزالي وابن حزم القرطبي وابن

(32) Al-Andalus, 4 (1936-39), pp. 253-281.

رشد وابن ميمون والقديس طوماس. كما قدم في الأخير، ضمن الملحق، تحقيقًا للنص العربي وترجمة إلى الإسبانية لمسألة ابن السيد البطليوسي.

سيخصص في وقت لاحق لنفس هذا الكاتب الأندلسي المسلم مقالًا بعنوان "**ابن السيد البطليوسي ومؤلفه كتاب الحدائق**"، وقد درس فيه حياة ابن السيد وحلل أعماله الرئيسة. كما سيحقق ويترجم "كتاب الحدائق"، وهو نوع من الكتب تهدف إلى تعليم آراء الفلاسفة لغير الملمين بها، ويعكس هذا الكتاب بأمانة وضع المعارف الفلسفية بالأندلس في أواخر القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر الميلادي. كما تتجلى في هذا الكتاب المحاولة الأولى في الأندلس للتوفيق بين الفكر اليوناني وعلم الكلام الإسلامي. إنه عمل يتمحور حول نظرية الفيض الأفلاطونية المحدثة الموسومة بآثار من الفيثاغورية، لكن المتنكرة دائمًا بصيغ تقليدية للأرثوذكسية الإسلامية (العقيدة الإسلامية الصحيحة). أما عنوانه، فيرجع إلى أن هناك ثلاث دوائر أو حدائق ترمز إلى ثلاث مراحل من الفيض: العقول السماوية، النفوس والموجودات المادية.

كما رأينا، فقد خصص أسين بلاثيوس للفلسفة الإسلامية أعمالًا عديدة منذ أطروحته الأولى للدكتوراه حول الغزالي. وبعودتنا إليها، فإننا نلاحظ أن أسين بلاثيوس اكتشف كُتّابًا كانوا مجهولين تمامًا في التقليد الفلسفي الأندلسي، وبدون هؤلاء سيكون من الصعب تفسير هذا العمل الفلسفي في مجموعه، وفي تقدمه وتطوره. لقد درس أسين بلاثيوس كل الفلاسفة الأندلسيين الذين وصلتنا أعمالهم، منذ أصول هذا الفكر مع ابن مسرة القرطبي حتى فتراته الأخيرة مع ابن طملوس الشقري. وكان من بين هؤلاء من عرّفنا عليهم كفلاسفة.

كما أشار إلى ذلك ميغيل كروث هيرنانديث Miguel Cruz Hernández ، فإن مجال الفلسفة الإسلامية الذي درسه أسين كان واحدًا من أوسع المجالات التي أُحيط بها حتى ذلك الحين، سواء من حيث امتداده أو من حيث مضمونه. إن ثراء هذا المضمون مذهل جدًا، وما نزال اليوم نعيش فيه على كثير مما أنجزه أسين بلاثيوس. كانت أبحاثه في هذا الميدان تهدف من جهة إلى انتشال آراء الفلاسفة الأندلسيين من النسيان وإبراز أصلها واتصالها بآراء الفكر الإسلامي في المشرق، ومن جهة أخرى، إثبات كيف أن هذه الآراء أثّرت في المفكرين المسيحيين خلال القرن الثالث عشر الميلادي لدرجة شق مسارات معرفية جديدة في العالم اللاتيني خلال العصر الوسيط. ونظرًا لاستثنائية عمله من حيث رسوخه ودقته العلمية ونزاهته الفكرية، فقد استحق السيد ميغيل أسين بلاثيوس، السرقسطي الشهير، تكريم مسقط رأسه له بجدارة.